الفصل الخامس

الألفاظ ومعانيها في بيان النبوة

برع البيان النبوي في اختيار اللفظ المعبر عن المعنى بدقة فائقة ، وحساسية بالغة فلم يقتصر الأمر على مجرد الانسجام بين حروف الكلمة ، أو حتى هذا التعاطف العجيب بين الشكل والمضمون ، بل حاز ذلك إلى رسم صورة نابضة متحركة باللفظ وحده ، يستقل برسم لوحة ، أو نقل جو شعوري ، أو إكمال الصورة عامة ، اقتداراً في البيان وإعجازاً في البلاغة ، أما كيف يرسم اللفظ المفرد صورة : فقد تنوعت الدلالة هنا بين ما يؤديه بجرسه وصوته ، أو بإيحائه وظله ، أو بهما معاً ، ونبادر إلى القول بأن مقتضيات الأحوال ساقت إلى هذا اللون من التعبير فوفى بالأغراض حقا مع الإمتاع الفني الكامل ، ونقدم هذه النماذج للإيضاح .

عن جابر عن النبي ﷺ قال : «إن من أحبكم إليَّ ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون ، قالوا : يا رسول الله : قد علمنا : الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون»[1].

من حديث عياض المجاشعي : ذكر الرسول ﷺ «من أهل النار : الشنظير الفحاش»[2].

ونلاحظ : كيف يرسم اللفظ «المتفيهقون» بجرسه المثير صورة لهذا الذي اكتظ بالكبر فكاد يفهق به ، وامتلأ غروراً فكاد ينفجر تكلفاً ، فهو ثقيل في

---

(١) التاج الجامع ٥/٦٤ (٢) المرجع السابق ٥/٧٧

نفسه متغطرس في سلوكه ، ونلاحظ كيف تتابعت الحروف متوالية المخارج ابتداء من الفم حتى الحلق مصورة تزايد الكبر ، حتى يصل الناطق إلى الهاء ـ أقصى الحلق ـ فينقطع نفسه وكأنما يصل إلى عمق المتكبر القاسي ، ثم يعود اللفظ إلى المخارج القريبة لينهي اللفظ بعد أن كلف الناطق رهقاً وصور ببراعة هذا البغيض .

وفي الحديث الثاني : تصور الكلمة حتى بدون معرفة مدلولها «الشنظير» صورة للشرير ذي الشر المتطاير والإثم الفاحش الذي يصيب من يقترب منه برذاذه وشظاياه ، إن حرف الشين المتفشي ، والظاء الصفيرية ، لتؤذن بجو غريب لهذه الآثار لهذا المرء المتفحش ولا شك أن الحس ينفر من اللفظ ومعناه تهديداً ، وتنفيراً بالغاً ، وقد رسم اللفظان في الحديثين صورة قوية بالجرس وحده .

عن سعد عن النبي ﷺ «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء»[1].

عن ابن عمر عن النبي ﷺ : «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذي من كل مكان ، فيساقون إلى بحر في جهنم يسمى بُولَس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال»[2].

وكلمة «انماع» في الأول ترسم صورة للهلاك المفاجئ لهذا الذي يكيد أهل المدينة إن الفعل يمثل قوة التلاشي والضياع ، بل إن ما يوحيه اللفظ من هذا الانتهاء وما فيه من حركة قابضة يكاد يسبق إيحاء التشبيه «كما ينماع الملح في الماء» ، وحديث المتكبرين ترسم فيه اللفظة «الذر» وهو النمل الصغير صورة لا يمل الخيال من تمليها ، إنها صورة رهيبة لحشد من الناس قضي عليهم أن يصغروا حتى يكونوا مثل النمل ، وإن الوجدان ليرتجف ويعنو لسطوة القهار ، ثم إن الظلال لتزيد وتمتد كلما تأمل الحس هذا اللفظ ، إن

---

(١) التاج الجامع ١٨٥/٢ (٢) المرجع السابق ٣٣/٥

هناك ذلاً ويأساً وضياعاً وهواناً وانتقاماً . ترهيباً نافذاً من كيد أهل المدينة أولاً ، والكبر ثانيًا نلاحظ أن الكلمتين «انماع ، الذر» رسمتا الصورتين لا بالجرس في الأذن بل بالظل يلقى في الخيال وتمتد إيحاءاته وتتنوع .

وقد يتعانى الجرس والظل لخلق جو شعوري خاص وصورة متحركة تشغل الحس والخيال جميعاً :

عن عائذ بن عمرو عن النبي ﷺ قال « إن شر الرعاة الحطمة»[1].

عن ابن عمر عن النبي ﷺ : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[2].

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»[3].

وكلمة «الحطمة» تقدم صورة لهذا الوالي الغشوم الظالم ، إنه ينطلق عاتياً كالريح مفترساً كالوحش يحطم ما أمامه ، ولا يقوم له شيء ، وتوالي الحركات ، وضخامة الصوت خاصة حرف الطاء مما يتم مع الظل رسم هذه الصورة بدقة .

وكلمة «يغرغر» تنقل لنا مشهداً لا ينسى ، رجل مسجى على فراش الموت بلغت روحه الحلقوم فتقلص جسمه وأرغى ، وتملكته الغرغرة الاضطرارية بصوتها الغليظ الأجش ، إنه صراع الموت والحياة ومعاناة الجسد وانفصال الروح . والجرس الغريب والظل الكئيب يقدمان هذه اللوحة ترهيباً من الغفلة حتى الغرغرة النهائية ، حثًا على المبادرة إلى التوبة .

والفعل «يتتعتع» يمثل قارئاً لم يسبق له أن قرأ القرآن ، وربما ولا غيره ، ينازع القراءة ويعاني في نطقه عسراً ، ويتعثر لسانه فلا يستوعب حرفاً إلا بعد مشقة ، وقد أسهم مع هذا الظلال هذا الجرس في المضعف الرباعي «تعتع»

---

(١) التاج الجامع ٣/٤٩

(٢) المرجع السابق ٥/١٥٢

(٣) المرجع السابق ٤/٤

الجاهد في زحزحة شيء ثقيل ، والمضارعية كشفت عن المحاولة الدءوب والمعاناة المتجددة ، ولذا كان لصاحبها أجران زيادة في الترعيب .

ولقد سلف أن أشرنا إلى اقتضاء المقام لهذا التصوير باللفظ الواحد إيقاعاً أو إشعاعاً وجدانيًا ، أو هما معاً ، ولا بأس أن نورد مقامات متنوعة وراء هذه الظاهرة .

التهديد :

عن حارثة بن وهب عن النبي ﷺ «ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر» .

ولأبي داود : «لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجحظري»[1].

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[2].

وفي الحديث الأول نلاحظ كيف ترسم الكلمات بنغماتها صوراً وتلقي ظلالاً ثم تتقابل الأجراس والظلال لتؤكد التصوير فهنا : ضعيف متضعف : حروف لينة سهلة تخلق جو اللين والدعة والذلة وهو رباني له ما يشاء ، يقابله المتكبر ، وقد رسمت له الحروف صوراً ثقيلة على الحس والسمع ، تمثل كلمة «العتل» الغليظ السمين الجافي ، والجواظ : بتضعيف الواو المفخمة بالمد الواقع على حرف الظاء النافر : يمثل هذا الغلظ والفظاظة والشراسة والاستعلاء المتكلف ، أما الجحظري : فيرسم جواً للتركيب النفسي المعقد عند المتكبر ففيه نفور وشذوذ وغلظ خارج عن الطبع ، إن الكلمة نافرة اللفظ نافرة المعنى لتنفر من مدلولها تهديداً لهذا النوع الذي حق أن يكون من أهل النار .

---

(١) التاج الجامع ٣١/٥ (٢) المرجع السابق ٧٠/٥

الترغيب :

عن مصعب بن سعد عن النبي ﷺ «التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة»[1].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»[2].

والأول دعوة إلى التأني والرفق في سلوك الإنسان الدنيوي و«التؤدة» هنا بحروفها المتفشية ، وحركاتها الهادئة مع منع الهمزة المفتوحة بعد ضم من اندفاع الصوت : يرسم جو الدعة والرزانة والرفق بجرسه وظلاله ويرسبه في النفس والترغيب في التأني في معالجة أمور الدنيا واضح .

وحديث أبي هريرة : اختار لفظ «نفس» لإزالة الكرب ، وفيه من الرشاقة والإشراق ما يدل على النهج النبوي في اختيار الألفاظ لمواضعها ، وقد اشترك الجرس مع الظل بالتجوز والتخييل طريقاً للأداء .

وقد كرر «نفس» مرتين في الشرط والجزاء مع إسناد الأخير إلى الله جل وعلا وزيادة في الترغيب في تفريج الكرب وتيسير العسر وإزالة الهم عن المسلمين .

الوصف :

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ»[3].

من حديث الشفاعة «ونبيكم قائم على الصراط يقول : رب سلم سلم ، وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج ومكدوس في النار»[4].

---

(١) التاج الجامع ٥/٥٨

(٢) المرجع السابق ٥/٧٥

(٣) المرجع السابق ٥/٣٦١

(٤) المرجع السابق ٥/٣٧٨

والأول : يمثل الإشفاق النبوي واستبعاد التنعيم بالدنيا ، والفعل : «التقم» يرسم لوحة حركية لتناول القرن بسرعة وشدة ووضعه في لهفة في الفم توقعاً للإذن القريب بنفخة تدك الأرض دكاً ، وجرس الكلمة وظلها يبرزان الخوف ويبعثان التخويف دفعاً إلى الصالحات .

ومثل هذه المشاهد الغيبية : هذه الكلاليب الجبارة في جهنم والناس بين مخدوش ومكدوس ، والتكديس جاء في صيغة اسم المفعول يفيد تلقائية الحدث ، واستحضاره في الوجدان ويطلق للمخيلة مجالاً للتصور المرعب لهذه الحركة المستمرة تخويفاً من مشاهد ينجي منها العمل مع رحمة الله تعالى .

أغراض أخرى :

كما نجد القصد إلى الدلالة بجرس اللفظ أو ظله مؤدياً الغرض غير ما سلف :

عن جابر قال : دخل النبي ﷺ على أم السائب فقال : مالك يا أم السائب تزفزفين ؟ قالت : الحمى لا بارك الله فيها ، قال : «لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد»[1] .

والفعل «تزفزفين» يصور بصوته وجهًا يضطرب فكاه ويهتزان في حركات متوالية اضطرارية ، مصحوبة بصوت يصاحب الحمى عادة من ارتعاش واهتزاز وقسر صوتي ، والمضارع المتجدد يعين على تصوير الحدث الممتد . إن اللفظ هنا يفوق التصوير باللون لثبات اللون ، أما اللفظ فالخيال يعايشه ويمطه ويصاحب حركته الدائمة ، والغرض هنا : الإيناس والرفق والتخفيف عن المريضة آلامها .

كان النبي ﷺ يعلمهم من الحمى والأوجاع كلها أن يقول «باسم الله الكبير أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار ، ومن شر حر النار»[2].

---

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ، سيد قطب ص ٩١

(٢) المرجع السابق : ص ٨١

والوصف : «نعار» اشتبك فيه الصوت بالإيحاء الذي أفادته الاستعارة .

والجرس العريض مع التخييل دل على صورة الألم الناتج في البدن من عرق ثار بالألم فأسهد وعنى . والغرض : التضرع والتعوذ مما يخاف منه .

أصبح رسول الله ﷺ فدعا بلالاً فقال : «يا بلال بم سبقتنى إلى الجنة ، ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامى ؟ فقال بلال : ما أذنت قط إلا صليت ركعتين وما أصابنى حدث قط إلا توضأت عندها ورأيت أن لله عليَّ ركعتين فقال : رسول الله ﷺ : بهما»[1].

واللفظ «خشخشتك» بتكرار الخاء والشين ووقعهما على الأذن : يرسم هذه الصورة الصوتية لحركة المشي واصطفاف السلاح ومجاذبة الريح للثوب الجديد دلالة على الجد في المسير ، والغرض هنا الإقبال والحب والإيناس وجذب الانتباه لسر هذا الجزاء الكريم دعوة وترغيباً .

وضح مما سبق ـ كيف كان اللفظ الحديثي مناسباً للمعنى ملائما للغرض ، وكيف استقل وحده بجرسه ، أو ظله ، أو بهما برسم صورة كاملة نابضة تختلف باختلاف الشعور عنفاً ولياناً ، غضباً ورضاً ، بهجة وألماً ، رغباً ورهباً ، مما يصدق معه ـ والحال تلك ـ أنه لا يمكن استبدال لفظ دال على ما سبق بلفظ آخر دلالة على التناسق في التصوير . ونشير هنا إلى أننا حاولنا التفرقة ما أمكن بين الدلالة بالجرس والدلالة بالظل وذلك أن الأول قد يكون له إيحاء ، وظلال بجانب ماله من صوت وجرس لأن التفرقة كما يقول بعض النقاد المحدثين في الواقع عسيرة ، لأن الفوارق دقيقة لطيفة[2].

وأيّا ما كان الأمر فهذا التناسق في التصوير بدلالة الألفاظ على معانيها أعلى من الفصاحة اللفظية ، ذلك أن تصوير الألفاظ للمدلولات ليس من قبيل الدلالة

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٣٥٩

(٢) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ، سيد قطب : ص ٨١

المعنوية فحسب ولكن من قبيل الطريقة التصويرية[1]، وهذا من أسرار الدقة البالغة في البيان النبوي الذي نعته الأستاذ الرافعي رحمه الله بأنه «مسدد اللفظ، محكم الوضع جزل التركيب، متناسب الأجزاء، في تأليف الكلمات، فخم الجملة، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه، واللفظ وضريبه في التأليف والنسق، ثم لا ترى فيه حرفاً مضطرباً، ولا لفظة مستدعاة لمعناها، أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتم منها أداء للمعنى، وتأتياً لسره في الاستعمال»[2].

* * *

(١) التصوير الفنى فى القرآن، سيد قطب: ص ٨١

(٢) اعجاز القرآن للرافعي ص ٣٥٩